

الإفتراء

عناصر الموضوع

٦٢	مفهوم الإفتراء
٦٣	الإفتراء في الاستعمال القرآني
٦٤	الألفاظ ذات الصلة
٦٦	ميادين الإفتراء ومظاهره
٧٩	ذم المضترين والرد عليهم
٨٥	أسباب الإفتراء
٨٧	آثار الإفتراء
٨٩	عاقبة الإفتراء

مفهوم الافتراء

أولاً: المعنى اللغوي:

الافتراء مصدر مشتق من مادة (فري): بمعنى قطع الشيء، يقال: فراه يفريه فرياً: شقه شقاً، ثم يفرع منه ما يقاربه، من ذلك، فيقال: فريت الشيء أفريه فرياً، وذلك قطعك له لإصلاحه، ومن الباب: فلانٌ يفري الفري إذا كان يأتي بالعجب، كأنه يقطع الشيء قطعاً عجباً^(١). وفري الكذب: اختلقه، يقال: فري فلانٌ كذباً يفريه إذا خلقه^(٢). فالافتراء في اللغة هو: اختلاق الكذب.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي للافتراء هو ذاته المعنى اللغوي؛ إذ إن الافتراء في الاصطلاح هو: اختلاق الأخبار التي لا أصل لها، وهو بذلك من الكذب العمد؛ بل هو شر الكذب. قال ابن عاشور: «الافتراء: اختلاق الأخبار، أي: ابتكارها، وهو الكذب عن عمد»^(٣). وقال ابن عطية: «الافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر، وجاء بأمر عظيم منكر»^(٤). وبالتالي في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي نجد أنه لا فرق بينهما؛ إذ كلاهما يعني: اختلاق الكذب، والافتراء أخص من الكذب، وأشد منه.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤ / ٤٩٧.

(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٩ / ٢٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٩ / ١٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣ / ٤٠٣.

الافتراء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فري) في القرآن (٦٠) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]	٢٥	الفعل الماضي
﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]	٢٦	الفعل المضارع
﴿وَحَرِّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٠]	٢	المصدر
﴿وَكَذَلِكَ بَجَزَى الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]	٣	اسم الفاعل
﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣]	٣	اسم المفعول
﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]	١	الصفة المشبهة

وجاء الافتراء في القرآن على معناه اللغوي، وهو: الاختلاق والكذب في حق الغير بما لا يرتضيه، فهو أخص من الكذب، وأصله من الشق والقطع للإفساد، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٦٧-٢٦٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ٨٧٥-٨٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/٤٩٦-٤٩٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/١٥٢-١٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكذب:

الكذب لغة:

مادة كذب: الكاف والذال والباء: أصلٌ صحيحٌ يدل على خلاف الصدق^(١).

الكذب اصطلاحاً:

قال الجرجاني: «هو الإخبار عن الشيء على خلاف الواقع؛ سواء بالقول، أو بالإشارة، أو بالسكوت»^(٢).

الصلة بين الكذب والافتراء:

أن الافتراء أخص من الكذب، وأشد قبحاً منه؛ لأن الافتراء اختلاق الأخبار الكاذبة التي لا أصل لها، وكذلك فإن الافتراء كذبٌ في حق الغير بما لا يرضيه، بخلاف الكذب فإنه قد يكون في حق المتكلم نفسه لا في حق الغير؛ ولذا يقال لمن قال: «فعلت كذا ولم أفعَل كذا» مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذب، ولا يقال: هو مفتر، وكذا من مدح أحداً بما ليس فيه، يقال: إنه كاذب في وصفه، ولا يقال: هو مفتر؛ لأن ذلك مما يرضيه المقول فيه غالباً، وقال سبحانه وتعالى حكاية عن الكفار: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤]؛ لزعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم بما لا يرضيه الله سبحانه مع نسبته إليه^(٣).

٢ الإفك:

الإفك لغة:

أفك إفكاً وأفوكاً: كذب، وأفك فلاناً: جعله يكذب، وحرمه مراده^(٤).

الإفك اصطلاحاً:

أعظم الكذب، وكل شيء في القرآن إفك فهو كذب^(٥).

قال الشنقيطي: «واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ١٦٨، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٥٢٨.

(٢) التعريفات، ص ٧٤، وانظر: التوقيف، المناوي، ص ٩٥٢.

(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٥٠-٤٥١.

(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ٩٣١.

(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٥٣.

الباطل، والعرب تقول: أفكته بمعنى قلبه»^(١).

الصلة بين الإفك والافتراء:

يشارك الإفك والافتراء في أن كلا منهما يعد من أشنع الكذب وأفظعه؛ وفي كليهما إساءة وإيذاء، ويختلف الإفك عن الافتراء بأن الإفك فيه قلب للحقيقة، أما الافتراء فهو اختلاق أخبار كاذبة ليس لها حقيقة أصلاً، وكلاهما شرٌّ محض.

٣ البهتان:

البهتان لغة:

مشتقٌّ من بهت الرجل يبهته بهتًا وبهتانًا فهو بهات، أي: قال عليه ما لم يفعله، فهو مبهوتٌ، والبهتان: افتراء^(٢).

البهتان اصطلاحًا:

هو الافتراء على الغير، وهو: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه؛ لأنه يبهت من ينقل عنه^(٣).

وقيل: هو كذب يبهت سامعه ويدهشه ويحيره؛ لفظاعته، وقال أبو البقاء: «سمي به؛ لأنه يبهت أي: يسكت؛ لتخيل صحته، ثم ينكشف عند التأمل»^(٤).

الصلة بين البهتان والافتراء:

قال الكفوي: البهتان: هو الكذب الذي يبهت سامعه أي: يدهش له ويتحير. وهو أفحش من الكذب؛ لأنه إذا كان عن قصد يكون إفكًا، والإفك: إذا كان على الغير يكون افتراءً، والافتراء: إذا كان بحضرة المقول فيه يكون بهتانًا^(٥).

(١) أضواء البيان ٦/ ١٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٠٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٨.

(٤) انظر: التوقيف، المناوي ص ٨٤، الكليات، الكفوي ص ٢٢٦.

(٥) الكليات، الكفوي ص ١٥٤.

مبادئ الافتراء ومظاهره

المبادئ التي يكثر فيها الافتراء، ويظهر بقوة متعددة؛ نجملها فيما يلي:

أولاً: الافتراء في العقائد:

١. الألوهية.

من أعظم أنواع الافتراء: الفرية على الله سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، والذي يعني الاختلاق عليه والحكاية عنه ما لم يقله، أو اتخاذ الأنداد والشركاء.

١. الافتراء على الله بادعاء الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

أي: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله فيوم السموات والأرض -سواء كانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحریم- فقد اخترع ذنباً عظيماً الضرر^(١)؛ لأن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد، فلا يبقى لهم معه أمل في مغفرة، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون، مقطوعو الصلة بالله رب العالمين.

٢. الافتراء على الله بما لم يقله:

ومن صور الافتراء على الله تزكية اليهود والنصارى لأنفسهم من غير برهان على ذلك، كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُونَ أَنفُسَهُمْ بِلِلَّهِ يُرَكِّي مِنْ يَشَاءَ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [٤٩] ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠].

هذا توبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحا نحوهم من كل من زكى نفسه بأمر ليس فيه؛ وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿فَمَنْ آتَيْنَا اللَّهَ وَأَحْبَبْنَاهُ﴾ [المائدة: ١٨].

ويقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١].

وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، فتزكيتهم أنفسهم من أعظم الافتراء على الله عز وجل؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب، وقلب للحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً^(٢).

ولما كان الشرك أعظم الافتراء على الله أرسل الله الرسل لإبطال ما اختلقه المشركون على الله من عبادة غير الله، ودعوتهم إلى عبادة الله، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿يَتَقَوَّمُوا عِبَادًا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّكُمْ لَأُمْقِرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

أي: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٢.

(١) تفسير المراغي ٥/ ٥٩.

غير الله، فيؤمن فريق، ويكفر فريق، ويتدافع الفريقان، ويجاهد الرسل والمؤمنون في الله حق جهاده، فيثبتون، وتكون العاقبة لهم، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢. النبوة والمعجزات.

من قبح المفترين ادعاؤهم على الرسل أنهم لم يأتوا بالمعجزات الباهرة والدلائل القاهرة من عند الله، وإنما هي اختلاق من عند أنفسهم، كما حكى الله عن فرعون وقومه من دعوة موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَعَيْنَا بِهِدًا فِي آبَائِنَا﴾ [القصص: ٣٦].

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالات القاهرة على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده، واتباع أوامره، فلما عين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهلة؛ وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والمجاهة،

أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، واختلقوا لها أسماء الآلهة^(١)، وتسميتهم إياهم شفعاء يتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتمائيلهم ويرجون النفع وكشف الضر عنهم بجاههم عنده.

ولما قام الأنبياء -صلوات الله عليهم- بدعوة أقوامهم إلى ترك عبادة غير الله، والقيام بعبادة الله؛ آمن بهم فريق، وعاندهم فريق آخر، سماهم القرآن الملأ.

كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَسْحَبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

أي: ما أعظم افتراءنا على الله إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم باتباع ملة إبراهيم^(٢).

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الدعوات أن يقوم الرسل وورثتهم من بعدهم بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله، وترك عبادة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٩.

(٢) تفسير المراغي ٩/ ٥.

فما صعد معهم ذلك^(١).

وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين دليلاً على بطلانها؛ وذلك آخر ما يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول، فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهات^(٢).

ولما جاءت مريم -عليها السلام- بعيسى عليه السلام المعجزة الإلهية من غير أب تحمله، أنكر عليها قومها ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأْتَتْ بِهِ، قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

والذي يفهم من الآية أن مرادهم بقولهم: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: منكرًا عظيمًا؛ لأن «الفرية» فعلٌ من الفرية، يعنون به الزنا؛ لأن ولد الزنا كالشيء المفترى المختلق؛ لأن الزانية تدعي لإحاقه بمن ليس أباه، ويدل على أن مرادهم بقولهم: «فريًّا» الزنا؛ قوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعاؤهم أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنا -حاشاها وحاشاه من ذلك- هو المراد بقولهم لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾، ويدل لذلك قوله تعالى بعده: ﴿يَتَأَخَذَ

هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. والبغي الزانية، يعنون كان أبواك عفيفين لا يفعلان الفاحشة، فما لك أنت تتركيبينها؟! ومما يدل على أن ولد الزنا كالشيء المفترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِمُهْتَنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ [السمتحة: ١٢].

قال بعض العلماء: أي: ولا يأتين بولد زناً يقصدن لإحاقه برجلٍ ليس أباه، هذا هو الظاهر الذي دل عليه القرآن في معنى الآية^(٣).

وعندما ينسخ الله حكمًا، ويأتي بحكم آخر لحكم يعلمها ورحمة بعباده سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

قدحوا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتسعون ما يروونه حجة لهم، وهو أن الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٥٥.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤١٤.

أن لهم أجرًا حسنًا، ما كثر فيهم أبدًا، وأيضًا فإنه كلما نزل شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية وبشارة لهم مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكمًا وبشارة أكثر، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه أنزل نظيره وهكذا.

ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها غيرهم.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية^(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن المشركين لا يدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع عالمي إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي، وأنه الرسالة الأخيرة التي ليست بعدها من السماء رسالة، وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفدت أغراضها، ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة، وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٩.

تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكمًا مكان آخر لحكمته ورحمته، فإذا رآه كذلك قدحوا في الرسول، وبما جاء به، و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشره. ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

﴿وَالْحَقُّ﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدر فيه قدحًا صحيحًا؛ لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئًا فشيئًا حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكمًا من الأحكام ثم نسخه علموا أنه أبدله بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية.

﴿وَهُدًى وَيُشْرِكُ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم

تعنت الكافرين، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه:

فتارة يزعمون أنه سحرٌ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا

جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

إنهم بقولهم هذا يغالطون أنفسهم، ويغالطون قومهم لستر مكابرتهم ولدفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج أن يتعلق بالمعاذير الكاذبة.

وتارة يزعمون أنه أضغاث أحلام،

وتارة يزعمون أنه شعر جاء به شاعر، كما

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بِكَلِّ

أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلِيلًا إِنَّا نَبَأُهُ كَمَا أُرْسِلَ

الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

يذكر تعالى اثتفاك المكذبين بمحمد

صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من

القرآن العظيم، وأنهم سفهوه، وقالوا فيه

الأقاويل الباطلة المختلفة.

فتارة يقولون: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ بمنزلة

كلام النائم الهادي، الذي لا يحس بما يقول،

وتارة يقولون: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾ واختلقه وتقوله

من عند نفسه.

وتارة يقولون: إنه ﴿شَاعِرٌ﴾ وما جاء به

شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من

حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به،

جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام

إلا هو، فالشأن له، ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطى للمريض منه جرعات حتى يشفى، ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية.

إن المشركين لا يدركون شيئًا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فحسبها افتراء منه، وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبًا قط^(١).

وقد حاول المشركون بكل الطرق فتنة

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليفتري

على الله غير القرآن بما يوافق أهواءهم،

لكن الله حفظ نبيه صلى الله عليه وسلم؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِنُفِثِي عَلَيْكَ عَيْرَةً وَإِذَا

لَا تَخْذُوكَ خِيَلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

يذكر تعالى منته على رسوله محمد

صلى الله عليه وسلم وحفظه له من أعدائه

الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: قد

كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك،

على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا

إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما

أنزل الله إليك^(٢).

٣. الكتب.

أخبرنا الله عز وجل في كتابه الكريم عن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢١٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٣.

اللَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّخْرُوتٌ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ [الفرقان: ٤].

يقول تعالى مخبرًا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون، فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور.

فهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صلى الله عليه وسلم وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد عينه على ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا.

ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تلتقها الأفواه، وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿فَبِئْسَ تَمَلُّنَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي

وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء.

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تنفيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقته، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلًا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة؛ لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعًا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم^(١).

وتارة يزعمون أنه: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرَى﴾ وهذا القول من بهتانهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٨.

وهو أبلغ في النفي وأبعد^(٣). ثم بين سبحانه وتعالى أن المتصفين بهذا القرآن هم المؤمنون فهو هدى ورحمة لهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويخلق **﴿وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات.

فلهذا كان: **﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتبعون به الرحمة

الحق.. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلية، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون كله من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق.

الحق.. الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه، في يسر وسهولة، وفي غير مشقة ولا عنت؛ لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم، الحق.. الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو آخرة^(١).

ثم نفى سبحانه وتعالى أن يخلق هذا القرآن كذبا، فقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [يونس: ٣٧].

أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر **﴿وَلَكِنْ نَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وفيه بيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين^(٢).

قال سيد قطب رحمه الله: «وما كان من شأنه أصلاً أن يفترى، فليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٢٨٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٢٦٩.

(٣) في ظلال القرآن ٣ / ١٧٨٦.

وتشويه وطمس للحقائق، لتشويه القرآن الكريم ورسائله السامية النبيلة، لقد بلغ صاحب هذا الكتاب ما لم يبلغه مسيلمة الكذاب، بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا الحد، بل كان يقر للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، لكن كان يدعي أنه رسول آخر، ولا ينكر وجود الرب، ولا ينكر القرآن في الظاهر، وهذا المفترى جحد الرب، وأشرك به كل شيء، وافتري هذا الكتاب الذي يزعم أنه أعظم من القرآن. وهذه المحاولة للدس والافتراء على كتاب الله الكريم ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة، ولكنها محاولات فاشلة. وسيبقى كتاب الله تعالى محفوظاً في الصدور وفي السطور، ولن تؤثر فيه محاولات التحريف والتزييف.

«الفرقان الحق» وقد استغرق إعداد الكتاب سبع سنوات، حيث بدأ إعداده بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م، وانتهى منه عام ١٩٩٩م، وطبعه ثلاث طبعات، كانت الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٢م وأصدره في ولاية تكساس في أمريكا باللغتين العربية والإنجليزية في سبع وسبعين سورة، ودعا فيه المسلمين بصراحة إلى التخلي عن ما هم فيه من كفر وضلال، أخذوه من القرآن والإيمان به هو، وإفك المفترى «الفرقان الحق»، ليكونوا على هدى وفلاح! وبذلك جعل كتابه بديلاً عن القرآن.

انظر: الانتصار للقرآن، تهافت فرقان متنبئ الأمريكان أمام حقائق القرآن، صلاح الخالدي ص ١٠.

من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد^(١).

هكذا عرض القرآن الكريم افتراءات المكذبين، ثم دحضها عن القرآن وعن حامله، ثم أثبت بأنه من رب العالمين، ثم حدد المتفيعين به، وهم المؤمنون.

الافتراء على كتاب الله في الزمن الحاضر:

لقد ظهر في هذا العصر أحفاد للمفترين السابقين ساروا على نهجهم، واستخدموا طريقتهم في الافتراء، لم يوص بعضهم بعضاً بذلك، بل تشابهت قلوبهم في الافتراء، كما قال الله: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

ف«منهم من أنكر الوحي، وادعى أن القرآن «أثر أدبي خالد» وأنه «منتج ثقافي» لا أكثر»^(٢).

وصنف آخر اختلقوا قرآناً يسمونه الفرقان الحق^(٣)، وهو زيف وكذب وافتراء

- (١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٤٢٧.
- (٢) المفترون، خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، ص ٣٢.
- (٣) الفرقان الحق، كتبه القسيس الأمريكي «أنيس شوروش» بلغة عربية؛ لأنه من أصل عربي، فهو من نصارى مدينة «الناصر» في فلسطين، وقد ادعى في كتابه أنه نجح في معارضة القرآن، وأنه بديل القرآن! وقد ادعى «شوروش» في كتابه النبوة «متنبئ الأمريكان» ويزعم أن الله أرسله نبياً للعالمين في القرن الحادي والعشرين، أنزل عليه كتابه الأخير

يكن كذلك.

فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء!

فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس.

فإن الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حندس الظلماء، فمن سيما كل منهما وكلامه وفعاله يستدل من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب، وسجاح، والأسود العنسي^(١).

و «من» استفهام إنكاري مستعمل في تهويل ظلم هذا الفريق، المعبر عنه بمن افتري على الله كذبًا و «من» الثانية موصولة، وهي عامة لكل من تتحقق فيه الصلة، وإنما كانوا أظلم الناس ولم يكن أظلم منهم لأن الظلم اعتداء على حق، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى، وأعظم الاعتداء على حق الله الاعتداء عليه بالاستخفاف بصاحبه العظيم، وذلك بأن يكذب بما جاءه من قبله، أو بأن يكذب عليه فيبلغ عنه ما لم يأمر به، فإن جمع بين الأمرين فقد عطل مراد الله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٢٥٥.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

وسيقذف الله بنور «القرآن الحق» على ظلام «الفرقان الحق المزعوم» فإذا هو مضمحل، كما اضمحلت المحاولات السابقة للافتراء على القرآن، ويخرج القرآن من هذه الافتراءات منتصرًا مضيئًا للخلق طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وإننا من ذلك لعلى يقين.

لكن منزل القرآن سبحانه وتعالى يحب من حملته أن يكونوا درعًا حصينة في صد ودحض الافتراءات التي لا تنتهي ولن تنتهي؛ لأنها سنة الله في دعوته، وهذه الافتراءات زيد يتلاشى؛ إذ لا نفع فيها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَدْمَغُ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

رابعًا: آيات الله وبراهينه:

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ١٧].

أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم

تعالى من جهتين:

جهة إبطال ما يدل على مراده، وجهة إيهام الناس بأن الله أراد منهم ما لا يريد، الله، والمراد بهذا الفريق: هم المشركون من العرب، فإنهم كذبوا بآيات الله التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أن الله أمرهم به من الفواحش^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

«أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً كزعم من زعم أن له ولداً أو شريكاً، أو أن غيره يدعى معه أو من دونه ويتخذ ولياً له يقرب الناس إليه زلفى ويشفع لهم عنده، أو زاد في دينهما ليس منه أو كذب بآياته المنزلة كالقرآن المجيد، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله»^(٢).

ثانياً: الافتراء في الشرائع:

من أعظم القضايا التي يقع فيها الافتراء قضية التحليل والتحريم، وهما تشريع شرع الله سبحانه لعباده، وليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الرب لعباده تديناً به إلا بوحيه وإذنه، وقد أنكر الله على من فعل ذلك.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ / ٨٦.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٧ / ٢٨٧.

فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ عَلَىٰ آيَاتِهِ﴾ [يونس: ٥٩].

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَىٰ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقوله: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وقوله: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْعَاءُ وَحَرَّتْ جِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِضْوَانِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرْمَتٌ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

وقد نهى سبحانه وتعالى عن القول عليه بما لم يقل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وَأَن يَكُن مَيِّتَةً فَهَدَّ فِيهِ شُرَكَاءَهُ
سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ
(١٣٨) [الأنعام: ١٣٨-١٣٩].

أي: من أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها ويتفعون، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم.

فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَمْتٌ وَحَرْتُ جِجْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف -من عندهم-.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة، وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم، وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله.

وهم كذبة فجار في ذلك ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام، ويعينونها محرماً ما في بطنها على

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه^(١).

﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ حين تقولونها بلا نص هي الكذب عينه، الذي تفترونه على الله، والذين يفترون على الله الكذب ليس لهم إلا المتاع القليل في الدنيا، ومن ورائه العذاب الأليم، والخيبة والخسران، ثم يجروا ناس بعد ذلك على التشريع بغير إذن من الله، وبغير نص في شريعته يقوم عليه ما يشعرونه من القوانين، ويتظنون أن يكون لهم فلاح في هذه الأرض أو عند الله!^(٢)

وانتصب (الكذب) على المفعول المطلق لـ (نصف) أي: وصفاً كذباً؛ لأنه مخالف للواقع؛ لأن الذي له التحليل والتحرير لم يثبتهم بما قالوا، ولا نصب لهم دليلاً عليه^(٣).

وقد وقعوا فيما نهاهم الله عنه كما أخبر عنهم ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْتٌ وَأَنْتُمْ حَرُمٌ عَلَيْهَا أَقْبَرُ عَلَيْكُمْ وَنَحْنُمْ أَحْسَنُ إِلَهُمْ قَدْ كُنَّا فِي حَيْرٍ﴾^(١٣٨) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ لَدُنْهُمْ وَمِنْهَا كَذِبٌ لَكُنَّا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٦٠٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢٠٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣ / ٢٥٠.

بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم^(١).

وقد ذمهم الله سبحانه على قولهم وفعلهم، فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

أي: ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قرينة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقرينة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم^(٢).

والبحيرة: ناقة يشقون أذننها، ثم يحرمون ركوبها ويرونها محترمة.

والسائبة: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئاً اصطلحوا عليه، سببها فلا تتركب ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله يجعله سائبة.

والحام: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم. فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلمهم^(٣).

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة: التي يمنع درها

الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأُنثَى خَالِصَةٌ لِنُكُورِنَا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتاً فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ حين وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يمهلهم جل جلاله.

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي، والضلال ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿افْتِرَاءٌ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٧٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢١١/١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٦.

ذم المفترين والرد عليهم

تنوعت أساليب القرآن في ذم المفترين والرد عليهم، وستتناول هذه الأساليب في النقاط الآتية:

أولاً: وصفهم بالظلم:

قال سبحانه وتعالى في معرض المبالغة في افتراء المفترين على الله الذين لم يبلغ أحد من الظالمين قبلهم ظلمهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا بَلْ إِنَّا لَنَرِيكَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِم أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿[الأعراف: ٣٧].

فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ما بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أي حكم لم ينزله على رسله، أو كذب بآياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه وهو الاستكبار عن اتباعها، أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل^(٤).

«وإنما كانوا أشد الظالمين ظلماً؛ لأن الظلم الاعتداء على أحد بمنعه من حقه،

قمعة يعذب فيها، رقم ٧٤٩٠.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة،

رقم ١٦٧٧.

(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٨ / ٣٦٧.

للتطواغيت، فلا يحلبها أحدٌ من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لألهتهم لا يحمل عليها شيء^(١).

قال: وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب).

والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بآثي، وكانوا يسيبونها لتطواغيتهم، إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للتطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء^(٢) وسموه الحامي^(٣).

وكان أول من تولى كبر هذا الافتراء «عمرو بن لحي»، فهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، روى ابن حبان بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عرضت علي النار، فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة ابن خندف يجر قصبه^(٢) في النار، وكان أول من غير عهد إبراهيم، وسيب السوائب)^(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة)، رقم ٤٦٢٣.

(٢) الأقباب: الأمعاء، واحدها قصب.

انظر: غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام ٢ / ٣٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر رؤية

المصطفى صلى الله عليه وسلم في النار ابن

ثانياً: تحديهم بالإتيان فيما زعموا أنه مفترى:

مر تحدي الله عز وجل للمشركين في القرآن المكي والمدني بأن يأتوا فيما زعموا أنه مفترى بمراحل:

المرحلة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالقرآن كله ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرين على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي: قل: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

المرحلة الثانية: تدرج معهم إلى عشر سور منه، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوتٍ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

أي: فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

المرحلة الثالثة: ثم تحداهم بسورة، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ

وأشد من المنع أن يمنعه مستحقه، ويعطيه من لا يستحقه، وأن يلصق بأحد ما هو بريء منه، ثم إن الاستحقاق وعدمه قد يثبتان بحكم العوائد، وقد يثبتان بأحكام الشرائع، وقد يثبتان بقضايا العقول السليمة، وهو أعلى مراتب الثبوت، ومدار أمور أهل الشرك على الافتراء على الله بأن سلبوا عنه ما هو متصف به من صفات الإلهية الثابتة بدلالة العقول.

وأثبتوا له ما هو منزه عنه من الصفات والأفعال بدلالة العقول، وعلى تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ونكران دلالة المعجزة التي يقتضيها العقل، وعلى رمي الرسول صلى الله عليه وسلم بما هو بريء منه بشهادة العقل والعادة التي عرفوها منه بهتاناً وكذباً، فكانوا بمجموع الأمرين وضعوا أشياء في مواضع لا يمكن أن تكون مواضعها، فكانوا أظلم الناس؛ لأن عدم الإمكان أقوى من عدم الحصول.

وتقييد الافتراء بالحال المؤكدة في قوله: ﴿ كَذِبًا ﴾ لزيادة تفضيح الافتراء؛ لأن اسم الكذب مشتهر القبح في عرف الناس، وإنما اختير الافتراء للدلالة على أنهم يتعمدون الاختلاق تعمدًا لا تخالطه شبهة^(١).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/٢٠٥.

مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ [يونس: ٣٨].

أي: إن شككتهم في أن هذا من عند الله، وقتلتم كذبًا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، ولفظ سورة هنا يشمل القصيرة والطويلة.

وكذا في سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ اللَّهِ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم؛ وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا^(١).

وهنا تساؤل: لم قال في سورة البقرة: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ وقال في سورة يونس:

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾؟

والجواب: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان رجلًا أميًا، لم يتعلم على أحد، ولم يطلع كتابًا، فقال في سورة البقرة ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني: فليأت إنسان يساوي محمدًا صلى الله عليه وسلم في أميته بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز.

فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أميته معجز، ثم إنه تعالى بين في سورة يونس أن تلك السورة في نفسها معجز، فإن الخلق وإن تعلموا واطالعوا وتفكروا فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز^(٢).

وعن جهاده صلى الله عليه وسلم في دحض افتراءات المفترين: قال الفضيل بن عياض رحمه الله: فلم يزل يقرعهم النبي صلى الله عليه وسلم أشد القرع ويوبخهم غاية التوبيخ ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧ / ٢٥٤.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٢٦٩.

أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء^(١).

ثالثاً: بيان تناقضهم في الاتهام والأقوال:

أخبر سبحانه عن تناقض أقوال المشركين، ولقن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بـ(قل) التلقينية، فقال: قل لهؤلاء: هل حرم الله الذكريين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك؛ لأنهم لا يحرمون كل ذكر من الضأن والمعز، وقل لهم: هل حرم الله الأنثيين من الغنم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضاً؛ لأنهم لا يحرمون كل أنثى من ولد الضأن والمعز.

وقل لهم: هل حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز من الحمل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضاً؛ لأنهم لا يحرمون كل حمل من ذلك، خبروني بعلم يدل على صحة ما ذهبت إليه، إن كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربكم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبَّأَهُمْ أَنَّ اللَّهَ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ خَيْرٌ وَأَلَّا يَلْمُوكَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيَلْمُنَكَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَعْمَىٰ عَنِ اللَّعْنَةِ لَلَعَيْنِ حَافِئًا مِمَّا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وَصَبَّحْتُمُ اللَّهُ يَهْتَدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

المعنى: قل لهم: إن كان حرم الذكور فكل ذكر حرام؛ لئن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، لئن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، يعني من الضأن والمعز، فكل مولود حرام، ذكرًا كان أو أنثى، وكلها مولود فكلها إذا حرام لوجود العلة فيها، فبين انتقاض علتهم وفساد قولهم^(٢).

«ففي هاتين الآيتين كشف الله لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال، وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس، وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم، أو بوحى شياطينهم وشركائهم، بينما هؤلاء لم يخلقوا لهم، إنما الذي خلقها لهم هو الله، الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما خلق وفيما رزق، وفيما أعطى من الأموال للعباد.

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله، ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحى، لا عن ظن ووهم، والله هو صاحب الحاكمية الشرعية، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام، وإذا أحله فهو حلال بلا تدخل من البشر،

(١) التحرير والتنوير / ١ / ١٠٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧ / ١١٥.

صلى الله عليه وسلم وكفار مكة^(٣).
وعلى القول بأنها في النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افتري هذا وافتعله من عنده محمد ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي: فإثم ذلك علي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى؛ لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه^(٤).

وفي هذه الجملة توجيه بديع وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفترى القرآن، فإن افتراء القرآن دعوى باطلة ادعواها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى: وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلاً^(٥).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شُهيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

أي: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلني -وليس كذلك- لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا﴾ [الأنعام: ١٦] إلا بلقاء من الله ورسله، ومن يصح الله ورسوله، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً [الجن: ٢٢]-
[٢٣].

ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع^(١).

رابعاً: إرخاء العنان لهم في المجادلة ثم إيدانهم:

الحق تبارك وتعالى يرخي للخصم العنان؛ ليقول كل ما عنده، وليأخذه إلى جانبه، لا بما يكره، بل بما يحب وأمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ومعنى ﴿مُفْتَرِيْنَ﴾ أنها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكذيبهم، وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله: ﴿مِثْلِهِ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته، لا في سداد معانيه^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَشْكُرُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وهذه الآية وإن اختلف المفسرون في المراد منها، فقيل: إنها حكاية عن نوح صلى الله عليه وسلم، وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاوراة الواقعة بين نبينا محمد

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٤٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٨.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٥٤.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٢٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢١٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ﴾^(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوْتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَكْفُرُ مِنْ أَمْرِهِ حَاجِرِينَ ﴿٤٧﴾ [الحاقة: ٤٧-٤٤].
ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ إِنْ أَقْرَبْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد^(١).

وهذه الأمثلة من باب إرخاء العنان للخصم ليدخل في المقصود بالطف موعود.

خامسًا: التهديد والوعيد لهم بسوء المصير:

أقسم سبحانه وتعالى بذاته العلية أنه سوف يسأل المفترين يوم القيامة عن افتراءاتهم، وسيجازيهم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَحْمِلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلَّفُ نَفْسُهُمْ قَشْرًا كَشْرًا يَقْتُرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه، واتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:

[٦٠].

أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

والمراد منه تعظيم وعيد من يفترى على الله.

ثم قال سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: دعهم وافتراءهم، فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ومدخر لهم جزاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وكما ابتليناك -أيها الرسول- بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام بأعداء من مردة قومهم، وأعداء من مردة الجن، يلقي بعضهم إلى بعض القول الذي زينوه بالباطل؛ ليغتر به سامعه، فيضل عن سبيل الله، ولو أراد ربك جل جلاله لحال بينهم وبين تلك العداوة، ولكنه الابتلاء من الله، فدعهم وما يفتنون من كذب وزور.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٥٧٧.

لافتراء المفتريين، كما قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا﴾ فتجرأ عليه، وقال ما قال؟ ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه.

فلو كان كاذبًا مجنونًا لم ينبغ لكم -يا أهل العقول غير الزاكية- أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم لبادرتم لإجابته، وليبتم دعوته (٣).

ولكن ﴿وَمَا تَفْنَىٰ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٣. الجهل.

أخبر تعالى أن الجهل سبب افتراء المشركين، ومن على شاكلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٥.

أسباب الافتراء

للافتراء أسباب، منها:

١. الكفر.

أخبر تعالى أن الذين يفترون الكذب على الله وعلى رسوله شرار الخلق من الكفرة والملحددين المعروفين بالكذب عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِحَاكِمَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملاً وإيمانًا وإيقانًا، معروفًا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد (١).

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألتها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان فيما قال له: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله (٢).

٢. العناد.

أخبر تعالى أن العناد والظلم كان سببًا

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم ٧.

عجلاً يسميه «عجل السيد البدوي» يأكل من حيث يشاء لا يمنعه أحد، ولا يتنفع به أحد، حتى يذبح على اسم السيد البدوي لا على اسم الله! وما يزال بعضهم يندرون للأولياء ذبائح يخرجونها من ذمتهم لا لله، ولا باسم الله، ولكن باسم ذلك الولي، على ما كان أهل الجاهلية يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله، وهو حرام نذره على هذا الوجه، حرام لحمه، ولو سمي اسم الله عليه»^(٣).

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيباً مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]^(١).

قال أبو حيان رحمه الله: «قبح تعالى فعلهم ذلك، وهو أن يفرّدوا نصيباً مما أنعم به تعالى عليهم لجمادات لا تضر ولا تنفع، ولا تتنفع هي بجعل ذلك النصيب لها، ثم أقسم تعالى على أنه يسألهم عن افتراءهم واختلاقهم في إشراكهم مع الله آلهة، وأنها أهلٌ للتقرب إليها بجعل النصيب لها، والسؤال في الآخرة، أو عند عذاب القبر، أو عند القرب من الموت»^(٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله: «ما يزال أناس بعد أن جاءت عقيدة التوحيد وتقررت، يجعلون نصيباً من رزق الله لهم موقوفاً على ما يشبه آلهة الجاهلية، ما يزال بعضهم يطلق

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢ / ٢٨.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٥٤٧.

(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٧٧.

اتخاذها»^(١).

٤. سبب في الحرمان من الهداية. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

٥. سبب في عدم الفلاح. قال تعالى: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩].

٦. يؤدي الافتراء إلى الذل والمهانة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَجِلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]. قال السعدي: «وكذلك نجزي المفتريين فكل مفتري على الله، كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا»^(٢).

٧. الافتراء سبب في وقوع العذاب في الدنيا. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَانَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْرَحَكُمْ

آثار الافتراء

أولاً: آثار الافتراء على الفرد:

١. المفترى على الله سبحانه وتعالى أعظم الظالمين والمجرمين. قال تعالى: ﴿فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤].

٢. الافتراء سمة كل كافر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

٣. يؤدي الافتراء إلى الوقوع في الشرك والبدع. قال ابن تيمية رحمه الله: «الشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب، كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركاً، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتى إنهم يخربون مساجد الله التي يذكر فيها اسمه، فيعطلون عنها الجماعات والجمعات، ويعمرون المشاهد التي على القبور، التي نهى الله ورسوله عن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية ٢ / ٢٨١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٣.

١. الافتراء من أشد أنواع الخطر العظيم، والضرر البالغ الذي لا يقتصر على من فعله، بل يتعداه إلى سائر طبقات المجتمع وعموم جهاته، وما يجلبه من سخط الجبار، وعذاب النار، والخزي والذلة والعار.
٢. الكذب يؤدي بالمجتمع إلى التفكك، ويجعل أفراده المستهترين الممارسين الافتراء يفسدون في الأرض، ويمارسون كل أنواع الرذيلة؛ لأنهم لم يخافوا الله عز وجل.
٣. المجالس التي يعرض فيها الكذب وغيرها، وتمارس فيه من قبل بعض الحاضرين هي حقيقة مواطن عدوي، ومصادر فتنة، وخلايا فساد، ومعاول هدم بما تنشره من شرور تؤدي إلى هدم المجتمع المسلم.
٤. الافتراء أعظم خطرًا على المجتمع، حيث يؤدي إلى عدم تحقق مقصد من مقاصد الشريعة، وهو حفظ الأمة، والذي يعني بث الثقة والأمان بين أفرادها، وطرح ما من شأنه إدخال الشك؛ لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده، وكما يتهم المتهم غيره يتهم من اتهمه، وبذلك ترتفع الثقة، ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق؛ إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق والمنافق.
٨. الافتراء سبب في شدة سكرات الموت والعذاب الأليم يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْقُلُوبُ مَنَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ يَوْمَ تَجُزُّونَ عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].
٩. الافتراء سبب في استحقاق لعنة الله وغضبه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].
١٠. الافتراء سبب في مناقشة الحساب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ثانيًا: آثار الافتراء على المجتمع:

عاقبة الافتراء

للافتراء عواقب وخيمة في الدنيا
والآخرة نتناولها فيما يأتي:

أولاً: عواقب الافتراء في الدنيا:

١. الخيبة والخزي.

أخبر الله عن كلمته موسى عليه السلام أنه حذر سحرة فرعون من الافتراء على الله، ووعدهم بعذاب من عند الله، وأنه سيخيب سعيهم، فلا يحققون النصر الذي يرجون، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبَنَّكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه: ٦١].

أي: «لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم، وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله»^(١).

وكانت لهذه الكلمات الأثر الكبير في زعزعة عقيدة سحرة فرعون الباطلة، وانتقلوا بفضل الله، ثم بفضل هذه الكلمات الصادقة من الكفر إلى الإيمان، وفي هذا المعنى قال سيد قطب رحمه الله: «وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة الصادرة عن عقيدة،

٥. أسوأ آثار الكذب على العاملين الشرفاء: أنها تشغلهم عن المضي في رسالتهم بالدفاع عن أنفسهم؛ إثباتاً لبراءتهم تجاه جمهور لا يملك من الوعي ما يمحص به الحقائق من الأباطيل بسرعة وبدقة.

٦. فشو الافتراء وعدم تصدي العلماء له يؤدي إلى إصابة المجتمع بالذلة والمهانة في عيون أعدائه؛ لأن قريشاً لما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالهدى واستمروا على الافتراء عاقبهم الله بالذلة، فأزال مهابتهم من قلوب العرب، واستأصلهم قتلاً وأسراً، وسلب ديارهم، فلما أسلم منهم من أسلم صاروا أعزة بالإسلام.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٨.

٤ . الغضب والذلة .

أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين الغضب والذلة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطققت بهم البراذين»^(٢).

وعن أبي قلابة الجرمي رحمه الله أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: «هي -والله- لكل مفتر إلى يوم القيامة»، وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: «كل صاحب بدعة ذليل»^(٣).

سُبْحٰنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُوكَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس: ٦٨-٧٠].

توعد تعالى المفترين ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فلا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله، ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد المؤلم بسبب كفرهم.

وجملة: ﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ استئناف بياني؛ لأن القضاء عليه بعدم الفلاح يتوجه عليه أن يسأل سائل: كيف نراهم في عزة وقدرة على أذى المسلمين وصد الناس عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم؟ فيجاب السائل بأن ذلك: متاع في الدنيا لا يعبأ به، وإنما عدم الفلاح مظهره الآخرة، ف«متاع» خبر مبتدأ محذوف يعلم من الجملة السابقة، أي: أمرهم متاع، والمتاع: المنفعة القليلة في الدنيا؛ إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزتهم بين قومهم، ثم يزول ذلك^(١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٨.

(٣) المصدر السابق.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٦.

على طغيان اليهود! لتتحقق وعيد الله لهم، وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم، فإن لم تصح البشرية فسيصحوا أخلاف المسلمين، هذا عندنا يقين»^(٢).

وقد رأى سيد قطب رحمه الله هؤلاء الذين كانوا في خياله من أخلاف المسلمين وجدهم حقيقة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، فقال لهم: «إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين، فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إن أمامكم كفاً مريراً شاقاً طويلاً، يجب أن تستعدوا له استعداداً كبيراً، بأن ترتفع إلى مستوى هذا الدين، ترتفع إلى مستواه في حقيقة إيماننا بالله، وفي حقيقة معرفتنا به فإننا لن نؤمن حق الإيمان حتى نعرفه حق المعرفة، ورتفع إلى مستواه في عبادتنا لله، فإننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا إذا عبدناه حق العبادة، ورتفع إلى مستواه في وعينا لما حولنا، ومعرفتنا لأساليب عصرنا، ورحم الله رجلاً عرف زمانه، فاستقامت طريقته»^(٣).

وصدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن ثوبان قال:

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣ / ١٣٧٦.
(٣) العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب ص ٥.

وقال مالك بن أنس رحمه الله: «ما من مبتدع إلا ويجد فوق رأسه ذلة، وذلك؛ لأن المبتدع مفتر في دين الله»^(١).

«فهو جزاء متكرر كلما تكررت جريمة الافتراء على الله، ووعد الله صادق لا محالة، وقد كتب على الذين اتخذوا العجل الغضب والذلة، وكان آخر ما كتب الله عليهم أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

فإذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض، ويستعلون بنفوذهم، وأنهم يملكون سلطان المال، وسلطان أجهزة الإعلام، وأنهم يقيمون الأوضاع الحاكمة التي تنفذ لهم ما يريدون، وأنهم يستدلون بعض عباد الله، ويطردهم من أرضهم وديارهم في وحشية، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه في هذا الزمان.

فليس هذا يناقض لوعيد الله لهم، ولا لما كتبه عليهم، فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يخترنون النعمة في قلوب البشر، ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب، وستجيء الصحوة من هذه الغيوبة، وسيفيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين.

ومن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥ / ٣٧٣.

العذاب.

«وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِن دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا لَّ إِلَهًا بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكُمْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

فهو إفك، وهو افتراء؛ وذلك مآله، وتلك حقيقته، الهلاك والتدمير، فماذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقرهم من الله زلفى؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير»^(٣).

«وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ قَالِقُوا لِيَهُمُ الْقَوْلُ إِن كُمْ لَكٰذِبُونَ ﴿٨١﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ [النحل: ٨٦-٨٧].

أي: ذهب واطمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم، ولا معين ولا مجيز»^(٤).

٢. الفضيحة على رؤوس الأشهاد. أخبر سبحانه وتعالى عن حال المفترين وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم كذلك»^(١).

ثانيًا: عواقب الافتراء في الآخرة:

١. حرمان الشفاعة والنصرة.

«أخبر سبحانه وتعالى أن جزاء المفترين في الآخرة أن ما يعبدون من دونه لا يشفعون لهم، ولا يدفعون عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس، وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وذهب عن المشركين ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه»^(٢)، فلا تنفعهم ولا تدفع عنهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)، رقم ٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٦٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٢٦٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٥٩٣.

قرار الله سبحانه في شأنهم إلى جانب ذلك الخزي والتشهير على رؤوس الأشهاد»^(١).
 إن جزء اختلاق الكذب والتشهير والتشنيع بالمؤمنين الصادقين التشهير والتشنيع في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

٣. الاصطلاء في النار:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقِي فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ عَلَىٰ آثَارِهِ يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَكُمْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس: ٥٩ - ٦٠].

أحسبون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلا بل يصلحهم في النار.

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال، الزور، الكذب، النبوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ١٨٦٨.

